محاضرة رقم: 13

التأثير النفسي على الفن:

على الصعيد النفسي وتشكله من التأثيرات الاجتماعية كان من جعل الفن لعبًا أو قيامه بتطهير النفس من الانفعالات، وهناك من جعل الفن نتيجة للمجتمع ومرتبطا بالإنسان ككائن اجتماعي، ولذا فهو أي الفن يتأثر بالصراعات الاجتماعية وبطبيعة المجتمع، فالمجتمع يتطلب وينتج فنا يختلف باختلاف كونه مجتمعا استعباديا أو ملكيا أو ارستقراطيا أو برجوازيا أو ديمقراطيا، وقد توقع (بردون) والاشتراكيون انقلابا في كل الفنون إذا أخمد الصراع بين الطبقات وإن هذا يؤدي إلى اختفاء أو تحور موضوعات خرافية كثيرة مبنية على تقاليد الطبقات الحالية ويؤدي إلى اختفاء الفن الخصوصي أو الأناني ثم إلى تنظيم ترف عام ضخم هو الفن الشعبي الحق، هو الفن للجميع، الفن الذي ينفذ في حياة المهن لتسهيل مهماتها ومسؤوليتها ليجعلها محببة إلى نفوس العمال القائمين بها، أي أن طبيعة المجتمع تؤثر في الفن، بل ويعتبر تطور الفنون وثيق الصلة بتطور المجتمعات، وإذا كان الاشتراكي الطوباوي (برودون) قد توقع سيادة نوع من الفن الشعبي وفقا لنظريته الاشتراكية الطوباوية -وقد رد ماركس على نظريته في حينها– فإن الربط العملي بين الفن والمجتمع جاء بعد ان تأسست الاشتراكية العلمية، ثم ازداد قوة عبر الصراعات بين النظريات المختلفة من خلال القرن العشرين وأواخر القرن التاسع عشر.

ولكن إطلاق الأثر للمجتمع على الفن لا يستقيم مع الأثر الجلي للفن على المجتمع ،فللفن طبيعته الجدلية ويمكن القول الفن ناتجا نتاجا ثانويا عن التطور الاجتماعي لكنه واحد من العناصر الأصلية التي تساهم في بناء المجتمع، والثقافات مختلفة متغايرة، ولا ينتج اختلافها

وتغايرها عن السهولة التي ترفض بمقدارها المجتمعات الوجوه المعيشية الممكنة، أو اجتهادها فيها وتحسينها فحسب، ولكنه راجع أيضا إلى العملية المعقدة الدقيقة، عملية نسج خيوط الثقافة وحبكها معا، ولذلك يجوز إذا عزلنا هذه الخيوط التي نسميها الفن أن نفقد وقتئذ منظر الشكل العام للثقافة.

نستطيع وبدون مواربة أن نقر علميا بأن الخلق الفني وتأثيراته على النظم الاجتماعية كان شديد الوضوح فهو فاعل ومؤثر بذاته، وفي هذا الصدد فلقد شدد فرانكاستل في كتابه (الفن والتقنية) حيث يبرز فيه الظروف المادية والتقنية لإنتاج العمل الفني، على أن الفن ليس انعكاسا كما تزعم الفكرة الماركسية بل هو بناء وقدرة على التنظيم والتصور، فالفنان لا يترجم بل يؤلف ويخترع ويُبدع، أنّه ميدان الحقائق المتخيلة، وعلى نحو ما يوجز روجيه باستيد (r.bastide) في كتابه (art et société)(1945-1970) فإنّ التحليل السوسيولوجي للعمل الفني ليس سوسيولوجيا غاية، بل هو سوسيولوجيا منهج يجعلنا نُدرك على نحو أفضل لا المحددات الاجتماعية للفن فحسب، ولكن يجعلنا ندرك البناء لتجربة جماعية المشهد المصور في نظره ليس انعكاسا لبنى اجتماعية ـ وذلك لأن الفنان يصنع الطبيعة التي يصورها، ولأن الفن هو ما تتشكل به البنى الذهنية، وفي التاريخ ما يجسد هذه العلاقة من منظور اعتبار الفن مركزا تدور حوله الحركات الاجتماعية، فلدى اليونان في ميدان الفنون التشكيلية وأصل (الآخيون) أو اليونانيون القدامى التراث الكريتي والموقنائي (الإيجي)، ولا يمكن أن يكون المركز الاجتماعي للفنان قد اختلف كثيرا عن الصانع الفنان في الكريت، وعلى أية حال، فمن غير المعقول أن يكون قد ظهر في أي وقت، مثال أو مصور من بين صفوف طبقة النبلاء، أو ممن ينتمون إلى طبقة إلى مجتمع البلاط، بل إن محاولات الشعراء والنبلاء في ميدان الشعر،

وخبرة الشعراء المحترفين في أساليب الحرب، كانت خليقة بأن توسع الهوة الاجتماعية بين الفنان الذي كان يشتغل بيديه وبين الشاعر الذي كان يشتغل بعقله، وكان هذا الوضع الجديد هو السبب الرئيسي في ارتفاع المكانة الاجتماعية للشاعر في العصر البطولي، بالقياس إلى الكاتب في الشرق القديم.

العلاقة التي كانت بين الفن والمجتمع عبر التاريخ لم تكن على نمط واحد، في جميع المجتمعات حيث كانت في القرن التاسع عشر، أو ما نفهمه عادة بهذا التعبير يبدأ حوالي 1830، فخلال ملكية (يوليه) أرسيت لأول مرة أسس هذا القرن ووضعت خطوطه العامة حيث ظهر ذلك النظام الاجتماعي الذي تتغلغلت جذوره، وذلك النظام الاقتصادي الذي لا تزال عداواته ومتناقضاته قائمة، والواقع أن كل السمات المميزة للقرن التاسع عشر كانت قد تحددت معالمها حوالي 1830، إذ كانت البرجوازية عندئذ قد اكتسبت قوتها الكاملة، وأصبحت واعية تماما بهذه القوة، واختفت الطبقة الارستقراطية من مسرح الأحداث التاريخية، وصارت تحي حياة منطوية على ذاتها تمامًا، وأصبح انتصار الطبقة الوسطى مؤكدا لا نزاع فيه، صحيح أن هؤلاء المنتصرين كانوا يؤلفون طبقة رأسمالية محافظة تماما، ومفتقرة إلى أية نزعة تحررية، وأنّ هذه الطبقة اقتبست الأشكال والأساليب الإدارية التي كانت تطبقها الأرستقراطية القديمة دون أي تعديل في كثير من الأحيان، ولكن طريقتها في الحياة كانت مع ذلك بعيدة كل البعد عن الطابع الأرستقراطي وعن الطابع التقليدي المحافظ، إذ نجد أن الفنون التشكيلية عرفت الرومانتيكية في بداية القرن التاسع عشر وكانت تتميز بها طبقة النبلاء.

لقد اختلفت الأبحاث في مجال سوسيولوجيا الفن ما يؤكد على إمكانية دراسة العلاقات التي تكون في الأشكال الاجتماعية والأشكال الفنية الجمالية، وقد تناول إيبوليت تين في مؤلفه

(فلسفة الفن) العبقرية الفنية على أنّها محصلة قوى ثلاث أهمها (الوسط) ويقصد به تأثير الأشكال والمذاهب أو البيئة النباتية والجيولوجية والحيوانية، ولقد دعى في نظريته إلى مبدأ للحكم على الفن، يقوم على عملية الملاحظة والتفسير مثل الذي يستخدم في مناهج العلم، وتوصل تين إلى عوامل أساسية تحدد خصائص الأعمال الفنية هي: السلالة، والبيئة، والعصر، ويتمثل عامل السلالة في الاستعدادات الطبيعية الموروثة، التي تؤثر في العادات والفنون، أما عامل البيئة فهو الحقيقة الجغرافية والاقتصادية والثقافية، و أما العصر فهو الرابطة التاريخية السياسية، ويعني أن ماضي الفن يؤثر في حاضره، وهكذا فسر المذاهب الفنية على أنّها انعكاس لنظم اجتماعية ولعادات العصر وللحالة العامة للتفكير، وبذلك يمكن رؤية النحت الإغريقي على أنّه نتاج وطن أحب جمال الأجسام، والكاتدرائيات القوطية هي نتاج عصر القساوسة الفرسان، أما التراجيديا الكلاسيكية فهي تصوير للعالم المنظم، الذي يحدد فيه كل شيء مقدما مثلما كان يحدث في القصور، وأما الرومنسية فهي تنبع من تهاون في النظم وتحطم الإطارات الاجتماعية، وكان تين قد تناول العمل الفني من خلال الظروف التي ظهر فيها من خلال تأثره وتأثيره في المجتمع بنظمه وقيمه، ومن خلاله نجد ان العمل الفني له كيانه من تأثير في العصر من تعدد في الانتماءات الاقتصادية والاجتماعية.

الخاتمة:

وما يدفعنا إلى الاستنتاج بالتفرد الفني في طبيعة الإنسان داخل الكون هو المظاهر الخالدة من سالف العصور إلى اليوم عبر الفن وملامحه، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي له القدرة على الإحساس والتذوق والجمال من خلال مظاهر الحياة، وقد يعيد هذا الواقع إلى أشكال متعددة ورائعة يحاكي واقعه الاجتماعي وبالأخص عند كلامنا عن الإنسان القديم.

عند دراسة حياة الإنسان ما قبل التاريخ، وجد العديد من العلماء باختلافهم في دراسة حياة الانسان ما قبل التاريخ أن الفن رافقه كضرورة أساسية منذ ألاف السنين، فوجد أن الفن الذي مارسه الإنسان من تصوير وحفر ونحت وبناء، ما هو إلا انعكاس لانفعالاته نتيجة الأحداث التي يراها والبيئة التي عاش فيها، وما التطورات والأشكال المختلفة للأعمال الفنية إلا مرآة لهذه العصور المختلفة.

المراجع:

1- بركات محمد مراد: الموسيقى العربية – رؤية تراثية وفلسفية، مجلة الثقافة الشعبية، البحرين، 2010.

2- عزيز الورتيلاني: الموسيقى العربية بين مفهوم الهوية واللهجة الموسيقية، مجلة الحياة الثقافية، عدد 249، سنة 2014.

3- العربي دحو: الشعر الشعبي في الثورة التحريرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط1، الجزائر، 1983.

4- علي إبراهيم: الثقافة في الموسيقى الشعبية والثقافة العالمية، مجلة الثقافة الشعبية، البحرين، العدد 23، سنة 2013.

5- زكرياء إبراهيم: فلسفة الفن في الفكر المعاصر، دار مصر للطباعة، مصر.

6- عماد عبد الغني: سوسيولوجيا الثقافة. مركز دراسات الوحدة العربية. ط1. بيروت. 2002

.

7- أحمد سفطي. دراسات في الموسيقى الجزائرية المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1988.
8- إدوارد سعيد. ترجمة كمال أبو ذيب. الاستشراق. مؤسسة الأبحاث العربية. ص 58.
9- مجلة تراث. نادي تراث الإمارات أبو ظبي 1999. العدد 1. ص 75.
10- أحمد شوقي الفنجري: الإسلام والفنون، دار الأمين، ط1، مصر، 1998.
11- أرنيست فيشر: ضرورة الفن تر: أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1989.
12- أرنولد هاوزر: الفن والمجتمع عبر التاريخ، تر: فؤاد زكريا، الوفاء للطباعة والنشر، مصر، 2005.
13- إياد محمد صقر: دراسات فلسفية في الفنون التشكيلية، الاهلية للنشر التوزيع، ط1، عمان الأردن،2010.
14- جمال قطب: فلسفة الرؤية في التأثيرية والفن الحديث، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1995.
15- حسين علي: فلسفة الفن رؤية جديدة، التنوير للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2010.
16- شاكر عبد الحميد، الفن وتطور الثقافة الإنسانية، دار ميريت، ط1، مصر، 2015.
17-Hutin Gton ,Samuel.P : qui sommes nous ? Identite national et choc des cultures odile jacob. 2014.
18- محسن محمد عطية: الفن والحياة الاجتماعية، دار المعارف المصرية، القاهرة، مصر، ط 2، 1997.
19-ناتالي أينيك: سوسيولوجيا الفن ، تر/حسين جواد قبيسي ،مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان ط1 2011 .
20-كمال محي الدين حسين: مسائل في الفن التشكيلي، ب ط، منشورات اتحاد كتاب العرب،1997.
21-وائل عبد ربه: تاريخ الفن، ط 1، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2007.
22-أمال حليم الصراف: موجز في تاريخ الفن، مكتبة المجمع العربي، ط 3، عمان، الأردن، 2009.

23-محمد حسين جودي: فنون العرب قبل الإسلام، ط2، دار المسيرة للنشر، 2005.
24-مصطفى عبده: المدخل إلى فلسفة الجمال، مكتبة مدبولي، ط2، القاهرة، مصر، 1999 .